« De quoi le Palestine est-elle le nom ? »

ألان غريش: ونقد السردية الغربية والمركزية الأوربية

«What is Palestine’s name?»

Alan Greish: Critique of Western and European Central Narratives

PhD. Elkhamis Ghafir

إعداد: ذ. الخامس غفير[1]



مما لا شك فيه أن المتأمل في واقع زمنية عودة السؤال حول القيم، وفي زمن الحروب باعتبارها من الإشكاليات التي باتت تذكرنا بالصراعات التي نشبت في أوربا الحديثة، يقف على مدى راهنية هذا السؤال، وضرورته الملحة في التعاطي مع الواقع، وهو الأمر الذي دفع ببعض المفكرين والفلاسفة والساسة إلى السعي نحو مقاربتها كعلم من العلوم، بحيث أصبح الحديث عن POLEMOLOGIE، علم الحرب، كعلم يهتم بكل دواعي الحروب وما ينتج عنها من صراعات إقليمية ودولية، حتى أن «كلوزفتر» Clausevitz عبّر ذات مرة عن تحديده لمعنى الحرب بكونها «عمل من أعمال العنف يهدف إلى إرغام الخصم على تنفيذ إرادتنا»، أما «كنسي رايت» Quincy Wright فيؤكد على أنه: «يمكن

(1) باحث في علم الاجتماع، المغرب.

اعتبار الحرب نزاعا بين قوات مسلحة وفي الوقت نفسه بين عواطف شعبية أو عقائد تشريعية أو اتفاقيات قومية»[1]

ولعل مناسبة توطئتنا، محكومة بسياقين؛ هما:

الأول: هو ما نعيشه هذه الأيام من حرب مدمرة وإبادة جماعية تمارسها الآلة العسكرية الإسرائيلية على شعب فلسطين، هذه الأخيرة التي حظيت بمكانة مهمة من لدن المتابعين والمراقبين للشأن العام الدولي وهي الأرض التي جذبت إليها الكثير من الاهتمام من طرف المشتغلين بالفلسفة السياسية وبالدراسات الاستراتيجية، وعموم الباحثين والإعلاميين.

الثاني: صدور كتاب «علام يطلق اسم فلسطين؟» لألان غريش Alain Gresh عن المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، في طبعته الأولى ببيروت، مؤرخا ب 2012، ويتضمن 255 صفحة من الحجم الكبير.

ويأتي اختيارنا لهذا الكتاب نظرا لأهميته وعمق فكرته وقدرته على تقديم أجوبة لجملة من الأسئلة التي يطرحها المتابع لما يجري اليوم على أرض غزة وما ستطرحه الأجيال اللاحقة من قضايا وتساؤلات على تاريخ ومستقبل القضية الفلسطينية.

إن الكتاب الذي قيد دراستنا يحمل في ثناياه ما تخبر به فلسطين العالم ويحكي صرختها لعالم الغد وأجياله بغية تجاوز الخطابات العدائية والصراعات الإثنية والحضارية، ولاقتراح حلول تسهم في تبني قيم الحق والعدالة، والتأسيس للفكرة الأخلاقية القائمة على ضرورة جعل العالم مجالا للتعاون المنصف.

انطلق «ألان غريش» Alain Gresh في مقدمة مؤلفه من تساؤل حول ما إذا كانت الثورات العربية التي اندلعت في أرجاء الوطن العربي قد أسقطت فلسطين من حسبانها، لينتقل بنا للتذكير بمآلات الحراك العربي الذي نظر إليه كمقدمة أولى وبداية لتغييرات أخرى تهم الخريطة السياسية لمعظمها، وأن هذا الحراك لايزال متفاعلا، وأن هذه المرحلة تشكل تأريخا حقيقيا للحالة العربية ومصير شعوبها التي «استعادت فيها الشعوب العربية

(1) Details in Gaston Bouthoul, op. cit., pp. 51-4; Oden Vallet, Petit lexique des Guerres de Religion D'hier et D'aujourd'hui Oden Vallet (Paris: Albin Michel, 2004), pp.36-79.

زمام السيطرة على تاريخها، لتندثر الأسطورة القائلة باستكانة كل الشعوب، بأنها غير جديرة بالديمقراطية»[1]

ولتبديد القلق حول سقوط القضية الفلسطينية من وجدان الشعوب العربية، ونزع أي ارتياب حول موقع فلسطين من كنف «الأمة العربية» بدعوى انشغالها بالقضايا الداخلية، خلال الربيع العربي، شدّد صاحب الكتاب على قصور التحليل الغربي الذي روّج لهذه الفكرة والذي حكم بتخلي الثورات عن القضية الفلسطينية التي لم تعد جديرة باهتماماتها، وأنها لا تستهدف بحق السياسة الامريكية والمواقف الغربية ليخلص بنا إلى «...أن تلك التحليلات خاطئة من دون شكّ، مثلما أثبتته حوادث متعددة؛ بدءا بالهجوم على السفارة الإسرائيلية في القاهرة، ووصولا الى استقبال الحكومة التونسية الجديدة إسماعيل هنية، رئيس وزراء حكومة حماس».[2]

لا غرو؛ أن لفلسطين مكانة مهمة وموقعا خاصا بها في السلم القيمي للشعوب العربية، ولهذا الغرض ارتأى «غريش» أن يعود بالقارئ إلى التاريخ الرسمي الذي وسم العلاقات التي جمعت العالم العربي بالقضية الفلسطينية مبرزا دور النخب الفلسطينية ومواقفها بعد صدور إعلان وعد بلفور سنة 1917م، الذي حمل تهديداً لمستقبل فلسطين، وهو الأمر الذي دفع بالحركة الفلسطينية إلى التفكير في آليات وسبل مواجهة المشروع الصهيوني، ملتمسة الدعم الخارجي من الدول العربية والإسلامية، وهو ما أسفر عن اندلاع الثورة العربية سنة 1936م.

لم يغفل «ألان غريش Alain Gresh» عن التذكير بدور لندن في دعم الهجرة اليهودية وسعيها إلى شق صفوف الحركة الوطنية الفلسطينية. الذي انتهى بها المطاف الى تعريب النزاع، «غير أنه كان تعريبا قادته حكومات تابعة للندن».[3] إلا أن هذا الوضع ستكون له تبعات على الوضع العربي بشكل عام وعلى مستقبل فلسطين على وجه التخصيص، بحيث شهدت الدول العربية اضطرابات داخلية نتيجة الهزيمة التي منيت بها، وهي ما عُرفت تاريخيا بالهزيمة العربية؛ التي كان من نتائجها الإطاحة بأنظمة عتيقة وزعزعة أخرى كانت على صلة وطيدة بالغرب.

(1) ألان غريش، علام يطلق اسم فلسطين، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط.1. ص 10
(2) المرجع نفسه، ص: 10
(3) المرجع نفسه، ص 11.

ذهب المتخصص في الشرق الأوسط والقضية الفلسطينية «ألان غريش Alain Gresh» إلى تشريح واقع الفلسطينيين وكشف معاناتهم بدءا بالتهجير القسري والتهميش الاجتماعي والسياسي، وحرمانهم من حقوقهم رغم حصولهم على الجنسية في بعض البلدان المجاورة لهم كالأردن مثلا. وبعد ظهور ما يسمى بالمد الثوري وبروز قيادات جديدة ما بين 1949-1967، رُفع شعار مهم، تردد صداه على لسان الفلسطينيين ألا وهو أنّ «تحرير فلسطين يمر عبر الوحدة العربية» وقد «تبنت منظمة التحرير الفلسطينية الميثاق القومي الفلسطيني، الذي يؤكد في مادته الأولى عند تعريفه بفلسطين بأنها «جزء لا يتجزأ من الوطن العربي الكبير، والشعب الفلسطيني جزء من الأمة العربية».[1]

وفي سياق حديثه عن تاريخ القضية الفلسطينية وسياقاتها المختلفة، جلّى لنا الرجل سياق نشأة المنظمة، وظهور حركة فتح التي تبنت وجهة نظر متباينة، واعتبرت أن «تحرير فلسطين هو مسألة فلسطينية في الأساس»، وجعلت من القضية الفلسطينية قضية داخلية، ورسمت حدودا للتدخل العربي، مختزلة إياها في تقديم المساعدة وتوفير الحماية لا غير، وكشف «غريش» وبنوع من التكثيف الدقيق عن مواقف الحركة المتشددة إزاء المواقف العربية.

وفي مرحلة تالية أبرز لنا طبيعة الارتباط الوثيق بين المنظمة والدول العربية الشيء الذي تولد عنه معاناة لها، وبعد فوزها في يوليو 1968م، بالمجلس الفلسطيني أو بأغلبيته، تم تعديل الميثاق وجرى تعريف فلسطين بكونها «وطن الشعب الفلسطيني العربي».[2]

لم تكن المنظمة على وفاق تام مع بعض القيادات السياسية الأخرى من حيث الرؤية والتصور والمنطلق، وظهر ذلك عندما توجه أحد قادة اليسار في حركة فتح باللوم والعتاب إلى قيادة الحركة، ولم يكن هذا الرجل سوى «ناجي علوش» الذي أنكر على حركة فتح تخليها عن الثورة وعلى تحويلها منظمة التحرير الفلسطينية إلى «دولة في المنفى»[3]، وهو ما يشي لنا بما آلت إليه المنظمة فيما بعد، خصوصا عندما انشغلت بتأسيس إطار نظري للدولة، وكيف تصدرت المناصب القيادية وتوزيعها، حتى وصل بها الأمر في إدارتها للمنظمة إلى اعتماد المحسوبية، وصارت سنوات السبعينات الإطار المرجعي لجميع المنظمات

(1) المرجع نفسه، ص 14.

(2) المرجع نفسه، ص 15.

(3) المرجع نفسه، ص 16.

الفلسطينية، وطبّعت في مرحلة لاحقة مع الوضع العربي الراهن الناشئ عن هزيمة 1967م، ومن ثمة فقدت طابعها «الثوري». كان من بين عيوبها ظهور بعض الأعطاب السياسية والأمراض التنظيمية، التي أسهمت بشكل أو بآخر في فقدها للأدوار الطلائعية التي كانت موكولة إليها زمن التأسيس من قبيل الحفز على المواجهة وتقوية المد الثوري، إلا أنها دخلت في مجاملات من جهة لبعض الأنظمة العربية، وفي صراعات مع أخرى، وبقيت على مسافة مع باقي الدول الأخرى، وهكذا عجزت عن تأهيل استراتيجية الكفاح المسلح، وسلكت في المقابل مسلك الديبلوماسية التي أعلنت عن ميلاد اتفاقية «أوسلو»، وهو ما انعكس سلبا على منظمة التحرير الفلسطينية، وتضررت منه المنظمة بل وحتى تلك التي كانت تقدم نفسها بأنها مشبعة بالمبادئ اليسارية من داخل المنظمة.

وبالعودة إلى السؤال الذي استهل به المؤلف سِفره خلص إلى القول إنّه «و على الرغم من القيود التي فرضتها الأنظمة العربية على شعوبها في أثناء الانتفاضة الثانية، وفي إثر الغزو الإسرائيلي لغزة في دجنبر 2008، استطاعت الشعوب أن تعبّر عن تضامنها مع الفلسطينيين[1] »، بل أكثر من كل هذا يمكن القول إن «ألان غريش» بسط رؤيته الإستراتيجية لمستقبل القضية وما سينتج عنها من تثوير للوعي العربي والدولي والإنساني واستنهاض للهمم العالمية صوب القضية ويظهر ذلك بوضوح من خلال ما صرح به في كتابه هذا بقوله «و لا يساور الشكّ أحد في أن فلسطين ستكون في قلب ذلك التجديد وتلك التساؤلات التي يشهدها العالم العربي بفضل ما بلغته من موقع يضعها في قلب التعبئة العالمية المناهضة لنظام دولي جائر.»[2]

يستطلع الكتاب الجواب عن سؤال يحمل عنوانا: علام يطلق اسم فلسطين؟ ويتغيّا من خلاله إبراز مكانة القضية المركزية في كنف «الأمة العربية «و «الإسلامية» وكذا الساحة الدولية، ساعيا إلى فضح الكولونيالية الصهيونية وسلوكها السياسي وقهرها الغاشم للشعب الفلسطيني متوسلا في توضيح ذلك بوثائق وأحداث تاريخية، وهو ما جعله يشكل مرجعا للباحث والمهتم بالقضية الفلسطينية، ومصدرا للمحللين والمتابعين لقضايا الشرق الأوسط وطبيعة النزاع العربي- الصهيوني وما نتج عنه من صراع حضاري، ويمثل مرجعا لمعرفة ما تزخر به فلسطين من إرث حضاري وتاريخي، في الوقت الذي يسعى فيه الغرب احتكار روايته وطمس الهوية الفلسطينية.

(1) المرجع نفسه، ص 18.

(2) المرجع نفسه، ص 20.

- يتكون الكتاب من خمسة فصول مع مقدمة الطبعة العربية ومقدمة للمترجمة وتمهيد وملحقين.
- حاز الفصل الأول على عنوان: حين نفهم لماذا يكون بقاء بعض الشعوب في «قاعة انتظار» التاريخ حتميا.
- حمل الفصل الثاني عنوان: حين نرافق حركة صعود المستعمرين على أرض الميعاد.
- جاء الفصل الثالث بعنوان حين يأخذنا العجب من تحول «يهودية الفيتوات» إلى يهودية لها عضلات».
- في حين جاء الفصل الرابع موسوما بـ: حين نحتفي بانقلاب العالم.
- ثم جاء الفصل الخامس تحت عنوان: عندما يختتم المؤلف كتابه مطلقا العنان لبراءته الطوباوية.

أما بخصوص الملحقَين فاختار لهما العنوانين الآتيين:

- حين نكتشف أن الدين يخفي أحيانا أطماعا مادية.
- عندما نشهد أن برنار- هنري ليفي ليس فيكتور هوغو.

في الفصل التمهيدي؛ قدّم النص مجموعة من السرديات التي ذكّرت بطبيعة العلاقة بين الدول الاستعمارية ومستعمراتها التي انبنت على القهر وصناعة العنف وتغذية الكراهية في صفوف مجتمعاتها وتفكيك بيئتها التي تعيش على قيم التعايش والتساكن بين مختلف الملل والنحل كما هو الشأن في الحالة المصرية والعراقية، ولم يقف المؤلف عند هذا الأمر بل حاول القيام بعرض مفصل للتحولات الفكرية والقيمية التي شهدتها البلدان العربية عقب شيوع الفكرة «الناصرية» ومدى مساهمة الإعلام المصري في استنهاض همم الشعب المصري لمجابهة الاحتلال البريطاني والفرنسي وانخراط جمهرة من الصحافيين والشعراء والنخب التي استنكرت حادثة «دينشواي» التي راح ضحيتها أربعة فلاحين وقيام السلطة الاستعمارية بتعذيب آخرين واعتقال البعض الآخر إلى حين صدور أحكام طويلة في حقهم

كان لقصة دنشواي المروعة أثرها في تغيير الخريطة السياسية للدولة المصرية وعلاقتها بالاستعمار البريطاني وكانت سببا وراء اتخاذ قرارات جريئة انتهت بتأميم قناة السويس، وهي الفرصة التي تم استثمارها لاستلهاب مشاعر وحماسة المصريين ونخبهم.

ويمكن القول إنّ الكاتب كشف حقيقة الهندسة الفكرية لجمال عبد الناصر وهو المشارك في الحرب بفلسطين، مقتبسا المعلومة من كتاب «فلسطين الثورة» لصاحبه «لفي موليه»: كنا نحارب في فلسطين ولكن أحلامنا كلها مع مصر» وجاء على لسان أحد مناصري جمال عبد الناصر «إن ميدان الجهاد الأكبر هو مصر»، وهو ما يعني أن الأفق الذي كانت تتطلع إليه القيادة المصرية ليس هو» تحرير فلسطين، وإنما تحويل مصر إلى دولة مستقلة وقوية وعصرية وتخليصها من أي وصاية أجنبية».[1]

صحيح أن المؤلف بسط رؤية واضحة عن المعيش اليومي وطبيعة العلاقات التي كانت تربط المصريين والأقباط واليهود، بحيث لم يكن هناك أدنى إقصاء أو تهميش لأي طرف، لكن؛ في المقابل كشف عن مساعي اليهود الحثيثة نحو إفشال الاتفاقيات المزمع إبرامها بين القاهرة ولندن بخصوص جلاء القوات البريطانية، وعرّج على الأساليب التي كانت تنهجها الصهيونية من أجل عرقلة أي مساعدة اقتصادية أو عسكرية من الغرب إلى مصر، وكيف نجحت في إحداث صراعات وصدامات بين مكونات المجتمع وخلق اضطرابات عامة.

وإلى جانب ذلك سعى «غريش» ؛إلى السفر بالمتلقي صوب جغرافية العالم لينقل العديد من الصور والأحداث التي شهدها هذا العالم من حروب وصراعات وكان على رأسها الخراب الذي حلّ بـ «فيتنام «جراء التدخل الأمريكي في هذه الحرب وقرّب لذهنية القارئ حجم التضامن الذي عرفته الساحة الطلابية والفكرية والسياسية من مختلف العواصم مع فيتنام، وكأننا نعيش هذا المشهد اليوم مع ما يجري بقطاع غزة، وما تعرفه الجامعات الأمريكية والبريطانية والألمانية والفرنسية والمغربية وغيرها، تضامنا مع الشعب الفلسطيني الذي يعيش تحت إبادة جماعية من طرف الآلة الصهيونية.

ليصل بنا «ألان غريش» في فصله التمهيدي إلى التذكير بناء على ما سلف ذكره؛ بأن هذا هو السياق الذي «تبوأت فيه فلسطين مكانة مركزية؛ ما يجعلنا نتساءل معه حول مجموعة من الإشكالات التي بدا لنا أنه من الضروري الوقوف عندها بغية مقاربتها مقاربة موضوعية، وهي كالآتي:

- علام يطلق اسم فلسطين؟
- كيف وظفت الصهيونية المفاهيم الأنثروبولوجية لخدمة مشروعها الاستعماري؟

---

(1) المرجع نفسه، ص 36.

- ما هي المنطلقات النظرية والفلسفية التي أطرت حركتها الكولونيالية؟
- ما هي مآلات الصراع الصهيوني- العربي في ظل الثورة الرقمية؟ ثم ما هي السبل الممكنة لمواجهة استمرار معاناة الشعب الفلسطيني؟

1. من الأنثروبولوجيا إلى الاستعمار الصهيوني.

لم تكن مسيرة البشرية محفوفة بالأمن والسلم، بل لابد من التأكيد على أن الأوضاع الدولية عرفت مدّا وجزرا، وشهدت سباقا نحو الهيمنة والسيطرة، وهو ما برز بشكل أوضح خلال الحروب العالمية، وما عرفته اليابان من صراعات مع الأساطيل الأمريكية، مما أتاح لها فرصة السيطرة على جنوب شرق آسيا.

غني عن التفسير أن الحركة الكولونيالية مهما كان موقعها وخلفياتها، ليس لها وجه حسن وآخر قبيح، إن هذه الثنائية هي التي أسقطت مجموعة من الشعوب في فخ المستعمر، وكان لزاما التسليم بأن الاستعمار ليس بشعا فهو ينطلق من قضية أساسية هي تقديم الوعود بجنة الأرض حتى يضمن الترحيب باستراتيجياته وتبني فكرته، ولهذا دلت الشواهد من خلال كتاب «ألان غريش» أن الفكر الاحتلالي دائما يقدم مبرراته حتى يوهم الشعوب بنواياه الوردية وتنخدع بخدعته «كثر أولئك الذين كانوا يعتقدون مخلصين أن أوربا وحدها هي من تحمل مشعل «الحضارة»، وهو مصطلح استخدم للتغطية على كثير من الحوادث، ولتبرير كثير من الجرائم»[1].

يستمد تبرير الاستعمار قوته من الجذور الفلسفية التي ترجع في أصولها البعيدة إلى اليونان القديمة، وتجد لها سندا من الدراسات الأنثروبولوجية التي أسست لمفاهيم تحمل في أحشائها فكرة التفوق على المتجمعات الأخرى، وتعطي لنفسها الحق في استعمار الشعوب وتخضعهم لرغباتها والسيطرة عليهم.» هكذا، وفقا «لجنيفر بيتس» Jennifer Pitts، ظهرت الحجج التي تقول إن تقدمية الطبيعة الخاصة لحضارة الأوربيين، إنما تمنحهم تفوقا أخلاقيا يسوّغ لهم التصرف وفق أهوائهم في المناطق «الهمجية»[2].

تأسيسا على ما سلف، جزم الرجل القول بأن الفكرة الأساس التي لابد من استحضارها في هذا المقام أن فلسطين لم تكن بعيدة عن هذا التخطيط الاستراتيجي الذي ظل حاضرا

(1) المرجع نفسه، ص 56

(2) المرجع نفسه، ص 60.

ومؤسسا على مستوى ذهنية المحتل، بل نؤكد مع «ألان» أنها كانت مرتعا خصبا لتنزيل تلكم النظريات الفلسفية والأنثروبولوجية والكولونيالية للغاية نفسها؛ وهي استعمار أرض فلسطين بمسوغات عدة كما درجت على لسان قادة الصهيونية.

2. جذور تأسيس الدولة الصهيونية

في مشهد بديع، ووصف دقيق يأخذنا صاحب كتاب «علام يطلق اسم فلسطين؟» في رحلة فكرية وتاريخية ليسبح بنا في علياء سماء فلسطين من خلال سرده للوقائع والأحداث التي رافقت صعود المستعمرين إلى أرض الميعاد، وكأنه يرسم للمشهد لوحات فنية للجغرافيا والهندسة المعمارية التي زينت بيوت الشعب الفلسطيني، وفي المقابل بدت المدن اليهودية بشكل بدائي وعنيف ولم تخضع لأي تخطيط مسبق. ولهذا ف» من الناحية الجمالية، ينتصر العربي على اليهودي بسهولة»[1]، إلا أن هناك ثمنا غاليا تم دفعه، بحيث بدت الأرض قاحلة وظهرت الأمراض وغابت المرافق الصحية بسبب المستعمر الذي حلّ بهذه الأرض، وهو ما دفع بصاحب اللوحة الفنية عن فلسطين في عشرينيات القرن الماضي، إلى طرح أسئلة بلاغية، «وهو يقارن بين الجلاد والضحية»:

أي الفريقين على حق؟ أيهما أسعد حالا؟ أيستحق هذا الجمال الملاريا والإملاق والتقرّحات والعمى؟

ومن هنا إذا، سيظهر لنا التطبيق العملي للمفاهيم التي سيطرت على لاوعي الرجل الأوربي الذي انتصر للقاعدة المألوفة لديهم «إن الحكم بإلقاء العرب في مزبلة التاريخ، أو حفظهم في حديقة أشبه بحديقة حيوانات، إنما يندرج في الإطار التصوري الخاص بتفوّق أوروبا وبإنكار إنسانية الآخر»[2]. ولعل هذا ما يؤكده المستشرق «مكسيم رودنسون» Maxime Rodinson في نص مشهور بعنوان «إسرائيل واقع استعماري؟» وجاء فيه: «يغرس التفوّق الأوروبي،)... (فكرة أن أي إقليم خارج أوربا يعد قابلا ليحتله أي عنصر أوربي»[3].

هذا هو المبدأ الحقيقي الذي قامت عليه الحركة الصهيونية، وساهمت الغزوات الأوربية في ترسيخه بمنطق إقصائي يمر عبر السيطرة المباشرة وغير المباشرة على الأراضي التي تعسر

(1) المرجع نفسه، ص 65.

(2) المرجع نفسه، ص 67.

(3) هذا النص أورده المؤلف في متنه، واقتبسنا منه بتصرف.

عليهم إخلاء أهلها، وجرى ذلك في دول عدة منها الهند والصين وجنوب إفريقيا والجزائر، ويجدر بنا القول بأن الدراسات الأنجلو-أمريكية حبلى بالأمثلة والشواهد التاريخية التي تشهد على منطق الإقصاء التي مارسته الدول الاستعمارية مع السكان الأصليين[1]. وليست فلسطين بمنأى عن هذه الممارسات كما يوضح ذلك صاحب هذا المؤلف وما إنشاء المستعمرات وتوسعها من طرف الكيان الإسرائيلي في الضفة الغربية ببعيد عن عين المتابع ومراقبة المختص والقارئ.

ذهب الباحث إلى تفصيل الحديث عن الأصول الأولى لفكرة تأسيس الدولة الصهيونية وإلى الحيرة التي انتابت الرعيل الأول من المنظرين لها، والى الاختيارات التي كانت مطروحة، ويذكر على أن تيودور هيرتزل Theodor Hertzl كان فكره متوجها نحو دول أخرى غير فلسطين، نذكر منها: الأرجنتين، وأوغندا...

بذلت الصهيونية السياسية جهدا كبيرا بغية استعمار فلسطين، وذلك عبر مطالبتها ب» حق العودة« إلى »أرض بعيدة وهي فلسطين«. وتطلب الأمر عقد مجموعة من المؤتمرات وتنسيقا دوليا متسارعا.

ومن التناقضات التي سجلها ألان غريش Alain Gresh أن بعض المناهضين للسامية كانوا من أبرز من دعم المشروع الصهيوني، واستدل على ذلك بما ذهب إليه الفيلسوف الألماني »يوهان غوتليب فيخته« Johann Gottlieb Fichte حيث رفض إلى جانب عدد من المفكرين الألمان، الوجود اليهودي قائلا: »لا أرى سبيلا آخر لحمايتنا من اليهود غير غزو أرض ميعادهم من أجلهم وإرسالهم جميعا إليها«[2].

وبالمحصلة؛ فإن التوافق مع دول أخرى وتشكيل تحالف »موضوعي« بينها وبين الصهيونية لم يكن سهلا، بل كانت ولادة ذلك التوافق ولادة قيصرية، وإن كان لابد من التأكيد على أن لندن كانت سبّاقه باتجاه تبني المشروع القومي الصهيوني الذي« يعود

(1) نحيل القارئ إلى العودة إلى الكتاب لاستيعاب المقارنة التي قاما بها طومسون Leonard Thompson وهاورد لامار Lamar Howard، أستاذا التاريخ في جامعة ييل Yale، نموذجي أميركا الشمالية وجنوب أفريقيا، قصد الوقوف على المنطق الداخلي للفكر الأوربي وما احتوى عليه من عنصرية وثقافة اقصائية وكيف أن البيض كانوا يعتقدون أن الهنود والأفارقة أدنى منهم وأقل شأنا من جهة الوراثة وأنهم دون البشرية.

(2) Cited by: Victor Kattan, From Coexistence to Conquest: International Law and the Origins of the Arab-Israeli Conflict, 1891 - 1949 Foreword by Richard Falk (London: Pluto Press, 2009).

لأسباب موضوعية وأخرى استراتيجية آنذاك.[1] ورغم ذلك كان الانحياز إلى الصهيونية واضحا من خلال دعم مشاريعها، والتأسيس لإطارات داعمة لهيمنتها، وغض الطرف عن سلب الأراضي الفلسطينية وانتزاعها قسرا من يد الفلاح الفلسطيني، وهو ما يعني سحباً لهويته ولانتمائه لوطنه وتاريخه الضارب في القدم، وتسهيل السبل للوكالات اليهودية بوضع ترسانتها القانونية وصياغة سياستها التي تبرر وجودها وديمومتها على الأراضي المغتصبة.

أفرد «غريش» لسؤال العلاقة بين المواطنة والعقيدة اليهودية حديثا مفصلا مبرزا العلاقة بين الجنسية والمواطنة، وأن الذي يملك حق المواطنة هو اليهودي الذي استطاع أن يثبت أن أحد الأجداد الأربعة كان يهوديا، ومعلوم أن «اليهودي» تحديد ديني صرف، ولعل الأخطر في هذه المعادلة عند الصهيونية هو أن «من تخلى عن دينه فقد مواطنته، مثلما أثبتته قضية أوزبورن Osborne التي رفعت أمام المحكمة نفسها عام 1958م.» والقصة هي أن هذا الرجل كان يرغب في الهجرة إلى إسرائيل، وكان يرى في نفسه يهوديا رغم أنه تحول إلى النصرانية، ووضع طلبا لذلك إلا أن الدوائر الصهيونية رفضت طلبه. ووصل الأمر بهم بموجب القوانين المنظمة للجنسية إلى إقصاء الفلسطينيين وربطها بما هو ديني، وعلى هذا الأساس سيعسر على المتابع للشأن الفلسطيني وصف حجم المأساة التي يعيشها الفلسطيني من خارج الفهم الصحيح لعتبات التاريخ والإيديولوجيا التي حكمت العقيدة الصهيونية مقارنة بالتجارب الكولونيالية الأخرى.

3. المرجعيات الفلسفية للصهيونية: أطروحات جريئة ومواقف صادمة.

لم يتوانى ألان في فصول كتابه عن سرد جملة من الحقائق التاريخية للتحولات السياسية وإبراز المتغيرات الدولية التي همّت مسار الصهيونية وتطوراتها الفكرية، معتمدا في ذلك مرجعيات فلسفية وسياسية ووثائق تاريخية، وهو ما جعلنا نقف معه على مجموع الشروخ التي شكلت التناقض الداخلي بين المهتمين بالمسألة الإسرائيلية من داخل المطبخ الصهيوني، وبين بعض الفلاسفة الذي كانوا ضد الصهيونية. نذكر منهم «ماريك إدلمان» قائد انتفاضة «غيتو وارسو» سنة 1943م، والذي عرف بمواقفه الجريئة، كان من الرافضين لقتل العرب بدعوى بقاء اليهود على قيد الحياة، ويمكن أن نستحضر ألبير

(1) منها على سبيل المثال الاتفاقيات السرية التي أبرمت بين بريطانيا وباريس على تقسيم الشرط بناء على (اتفاقات سايكس بيكو 1916).

انتشاين الذي بدأ متعاطفا مع فكرة تأسيس وطن لليهود في فلسطين، وانتهى به الأمر إلى التردد في مناصرة المشروع الصهيوني.

ومن سخرية المواقف التي يمكن تسجيلها حول الفكرة الدينية التي نشأت من أجلها الدولة اليهودية، وهي أنها في الحقيقة تعكس حجم التباين والجدل الذي طغى على سطح السجال السياسي والاستعماري، ويبدو ذلك ظاهرا للباحث في الشؤون الإسرائيلية سيما عندما يعلم أن «كثيرا من ممن ينتمون إلى اليهودية يصرّحون بأنهم لا أدريون، بل يعلنون أنهم ملحدون»[1].

والأعجب من ذلك أن هناك رفض عارم من قبل أغلب اليهود للصهيونية خصوصا قبل الحرب العالمية الثانية، ترى ما سبب هذا الرفض؟ وماهي مبرراته؟

حسب ألان غريش «كان الرفض إما باسم الدين (إذ لا يصح أن تقوم دولة يهودية قبل عودة المسيح المنتظر وفقا للأغلبية العظمى من الحاخامات)، أو رغبة في الاندماج في داخل المجتمعات الغربية، وإما تمسكا بالنموذج الأممي، اشتراكيا أو شيوعيا.[2]

وضعت الصهيونية الجديدة لنفسها أهدافا، تختلف عن تلك التي كانت عند جيل التأسيس لفلسفتها واستراتيجياتها، وتم تقسيم اليهود إلى صنفين:

الصنف الأول: ويعد في نظرها الأضعف، أي يهود ضعاف وصغار، وهو اليهودي الخامل الذي لا يجتهد والغارق في الخرافات.

أما الصنف الثاني: حسب أحد أبرز الوجوه المنظرين للصهيونية رافنيتسكي Rava-nitzki ، وهو من «فصيلة» اليهود «غيتو» وهم من الكبار ويقدسون القوة والمتشبعين بالنضارة والحياة، هذا اليهودي هو الذي سينبعث فيما بعد بحلة جديدة نتيجة الاستعمار، وهو من سيقود فكرة الدفاع عن الحضارة الأوربية لأنه صار ينتسب إليها فعليا. وهو الوصف عينه الذي أكده «بنيامين بيت هلحمي» Benjamin Beit-Hallahami، «فهم أقوياء ومقاومون ويتقنون الهيمنة».

لم يألُ الصهاينة جهدا، من أجل توظيف كل الوسائل المتاحة لديهم للترويج لمشروعهم الاستعماري، فكانت السينما الفضاء الأرحب لخدمة مواقفهم وكسب تعاطف الدول مع

(1) المرجع نفسه، ص 114.

(2) المرجع نفسه، ص 116.

خططهم، وترسيخ «الهولوكست» وتقديم الصهاينة كضحايا للنازية، يعيشون تحت تهديد الشعوب والزعماء العرب. وتم إنتاج سلسلة من الأفلام لهذا الغرض أو لفكرة معاداة السامية، منها على سبيل المثل لا الحصر: «فيلم السقف الزجاجي» للمخرج الأمريكي إيليا كازان Elia Kazan، ثم الفيلم الوثائقي «الأسى والشفقة» للمخرج الفرنسي مارسيل أوفولس Marcel Ophuls.

بالمنطق «البورغيوني» تم حصر مفهوم الإبادة على إثر المحاكمات التي تعرض لها من وصفوا بأنهم من المعادين للسامية مثل «ايخمان» أو أولئك الذين ارتكبوا إبادة جماعية في حق اليهود فقط، وهي حصرا على التاريخ الصهيوني، ولم يتم تعميمها على الإبادة الجماعية التي ترتكب في حق الإنسانية، وكأنها تراث يهودي، وكل من أنكر المحرقة في العالم العربي سيتعرض للعقاب لأن المحرقة أريد لها أن تكون ورقة ضغط لمجابهة الفلسطينيين ووأد مطالبهم المشروعة.

4. التحولات الكبرى للعالم الجديد: من وهم الاستقلال إلى الثورة المعلوماتية.

عرض «ألان غريش» Alain Gresh في هذا المقام، لمجمل الجهود التي تم بذلها لمواجهة الاستعمار، ولأهم التحولات التي مست الدول المستعمِرة والمستعمَرة، بالإضافة إلى الظروف والعوامل التي أسهمت في إحداث التحولات التي شهدها العالم، والشروط التي أنضجت فكرة نزوع الدول الثالثة نحو التحرر من الهيمنة الغربية، وقد عُقد لذلك العديد من المؤتمرات والمشاورات، التي لا تُخفي رغبتها في خلق نوع من المسافة مع السيطرة التي عمّرت لردح من الزمن والتي تعود في جذورها التاريخية إلى النصف الأول من القرن 19، والتي شملت السياسة والاقتصاد والجوانب العسكرية، بله الجوانب الفكرية والثقافية.

ما من شك؛ أن تلكم الجهود كانت ترنو في مجملها إلى الانعتاق من عقدة التفوق الغربي، وتوحيد الصفوف الداخلية، وترتيب العلاقات مع «الرجل الأبيض»، ومن ثمة تنامى الشعور نحو «فهم بعض المشكلات التي تواجه الدول الاستعمارية والبلدان الرازحة تحت نير التبعية لقوى أخرى»[1].

ولهذا شكل ظهور حركة عدم الانحياز سنة 1961م علامة فارقة في تاريخ العلاقة مع المستعمر، بل كان بداية مسار تدريجي وجديد للتحرر من الاستعمار وظهر تغير في المواقف

(1) المرجع نفسه، ص 147.

السياسية والفكرية والثقافية، بحيث صار بمقدورها إثبات ذاتها، ولم يعد المسْتعمَر المضطهد قادرا على التطبيع مع المستَعمِر ولا أن يعيش مستغَلا ومحتقَرا.

على الرغم من التحولات التي طرأت على العالم الجديد؛ بقيت بعض الدول تحتفظ لنفسها بالحق في توظيف بعض المفاهيم ذات الحمولة الاستعمارية، تبرر من خلالها الخلفية الإيديولوجية القائمة على العقلية الاقصائية والعدائية لدول العالم الثالثية، من قبيل هذا الوصف ذاته، إلى جانب عبارات أخرى، مثل» دول تود اللحاق بالتاريخ»، وهو ما يفسر دون موارية أنها خارج التاريخ ويترتب على ذلك أنّ الغلبة دائما للغربي.

نظريا يبدو أنّ هناك دولا أحرزت الاستقلال السياسي، لكن تبقى فلسطين تعبّر بوضوح عن بؤس العالم الذي لايزال يتفرج على الاستعمار الغربي لهذا البلد الذي يتعرض لإبادة جماعية لم يشهد العالم لها مثيلا.

لا مراء أن الصهيونية قد أحكمت السيطرة على الإعلام، وتمكنت من الترويج لمظلوميتها المزعومة داخل الأوساط الغربية، وبالتالي كان الحديث عن الرواية الفلسطينية من جانب واحد، لكن مع التحولات التي عرفها العالم سياسيا واقتصاديا وثقافيا، سيكون للمشهد الإعلامي العربي دورا ملحوظا في تغيير الكثير من المزاعم المغلوطة، وهنا سيقف «غريش» عند الثورة الإعلامية التي حققتها قناة الجزيرة القطرية، ومساهمتها في تثوير الوعي العربي من أجل فهم ما يجري بفلسطين وبغرض تحطيم صنم المركزية الأوربية وتفوقها على باقي الحضارات الأخرى، وهو ما أكسب القضية الفلسطينية تعاطفا عربيا وإسلاميا ودوليا وأعادها إلى واجهة الأحداث والأخبار العالمية، وبذلك لا غرابة أن يتساءل ألان: «فهل لنا أن نندهش من خروج العشرات من الآلاف من هنود أمريكا اللاتينية من بوليفيا إلى فنزويلا في يناير 2009م، في تظاهرات تضامنا مع الفلسطينيين في غزة؟[1]

إن هذا التفاعل مع القضية الفلسطينية طيلة الحروب التي كانت أرض غزة مسرحا لها، ما كان له أن يحدث لولا مساحة الحرية في نقل الخبر التي أتاحتها الثورة المعلوماتية وتخطي القيود التي كانت مفروضة على الرواية العربية والإسلامية المنتصرة لفلسطين. وأضحى العالم يشاهد بث الجزيرة من خلال «صور القمع الرهيب الذي انتهجه الجيش

(1) المرجع نفسه، ص 154.

الاسرائيلي؛ وكشفت تفصيلات السياسة الاستعمارية المتواصلة بلا هوادة التي انتهجتها الحكومات الاسرائيلية المتعاقبة، أكانت حكومات حزب العمل أو حكومات حزب اليمين»[1].

هكذا؛ تلاشت الأسطورة الإسرائيلية وولّى زمن الرواية الرسمية لقناة «سي إن إن»(CNN)، أمام دور الجزيرة الرائد، وسنح بتعزيز قوة الإعلام المناهض للغطرسة الصهيونية، واحتكارها للمشهد الإعلامي، وصار للفلسطينيين الحق في الإعلام العابر للقارات والتفكير بصوت عال والتعبير عن حقيقة ما يجري فوق أرضهم، وبذلك لم يعد الغرب وحده القادر على «تحديد قواعد اللعبة الدولية».

5. فلسطين عنوان للهيمنة الغربية وفشل التسوية.

وفي خطوة يكسوها الألم؛ كشف ألان غريش في نصه أن النوايا العربية وحلم الاتفاقيات ومحاولات التسوية طيلة القرون الماضية إلى يوم الناس هذا، لم تجد طريقا للتنفيذ ولم تعد تغري بالحل. وذلك راجع بالأساس إلى الجذور الأولى للصراع الفلسطيني الصهيوني، الذي يتحمل فيه المسؤولية الطرف الإسرائيلي لكونه يقوم على مشروع استعماري يكرس سلطة القوة ومنطق التفوق على «السكان الأصليين»، وهو ما جعل سلطة الاحتلال تتمادى في قهرها وتتجه نحو الهروب من الاعتراف بحق الفلسطينيين في تقرير مصيرهم على غرار باقي الدول الأخرى. في حين لا تزال فلسطين «آخر أثر باق للاستعمار الاستيطاني الأوربي، فهي تبلور التطلعات إلى عالم نجح في طي صفحة قرنين من هيمنة الغرب»[2]

ولعل ما يمكن أن نخلص إليه مما سبق أن: القضية الفلسطينية لم تعد قضية أرض، أو قضية شعب محتل من طرف الصهيونية، بل صارت لها رمزية، بمعنى: فلسطين باتت رمزا للسردية الغربية الموسومة بالمكر والخداع بتعبير «ماكيافيلي»، وأصبحت عنوانا للاستبداد والتحكم في العالم والسيطرة عليه، ومدخلا رئيسا لفهم حقيقة الكولونيالية وما ينتج عنها من مظالم وقلب للحقائق.

في اعتقادي؛ يبقى النص» الغريشي»، من أهم المداخل الأساسية لفهم ما يجري من أحداث ونزاعات لا تهم القضية الفلسطينية فقط، بل للوعي بما يحاك ضد الدول المستضعفة من خطط لتقزيمها والحد من نفوذها أو تطورها، وفيه أجوبة عن الأسئلة

(1) المرجع نفسه، ص 157.

(2) المرجع نفسه، ص 167.

الحارقة عن الأسباب الكامنة وراء التدني الأخلاقي للدول «المتقدمة» وسوء سلوكها السياسي والاستراتيجي تجاه القضايا الإنسانية عامة والفلسطينية على وجه الخصوص.

ونختم بجواب ألان غريش؛ عن سؤال النص حتى نفهم ما الذي تعنيه فلسطين اليوم وغدا للعالم، علامَ صار يطلق اسم فلسطين؟

«هو، بداية، الاسم الذي يُطلق على سيطرة الغرب الاستعمارية. وهو من بعدها اسم لمظلمة مستمرة وصمها انتهاك دائم للقانون الدولي. وهو أخيرًا، اسم لمنطق قائم على الكيل بمكيالين، تطبّقه الحكومات، وتمرره الأمم المتحدة، ويُنظر له عدد من المفكرين الغربيين عند تقاطع الشرق والغرب، والتقاء الشمال والجنوب، ترمز فلسطين إلى العالم القديم الموسوم بهيمنة الشمال، بمثل ما ترمز لولادة عالم جديد قائم على مبدأ المساواة بين الشعوب».[1]

(1) المرجع نفسه، ص 167-168.